الأستاذ نور

عبد الفتاح الحسن

الاسم، في البدء، لم أكن أعرفه. كنتُ كلما توجهتُ إليه بالحديث أبدأ بكلمة «أستاذ». ومع الوقت، عرفتُ أنّ اسمه «نور.. الأستاذ نور». ذلك أنه عندما يدخل علينا، ومعه صديقٌ أو رفيقُ طريق، كان مرافقُه يناديه بقوله: «أستاذ.. أو أستاذ نور». وكثيراً ما دار الكلام بيننا، وأنا أنظّف له السمكات التي انتقيتُها له أو اختارَها هو، وتتردد كلمةُ «أستاذ» على لساني إلى درجة لافتة كأنها مقصودة لذاتها أو كأنّ القصد منها غيرُ معناها أو مدلولها. واللافت أيضاً أنه كان دائماً يناديني بقوله: «سيد»، فيقول: «يا سيد كريم ـ وأحياناً كرم ـ أو يا سيدي»، ويقولها بمنتهى الجدية، فيعترينى الخجلُ وأحسّ أني أذوب تواضعاً في حضرته.

لم يكن أستاذاً بمعنى أنه مدرّس في مدرسة أو جامعة. آنذاك لم يكن عندنا في الشمال فرعٌ للجامعة. فقد كانت الجامعة أو الجامعات كلها لا تزال في بيروت؛ إذ كان ذلك قبل الحرب. لعله كان محامياً أو قاضياً أو مفتشاً. ويبدو أنه كان يشغل مركزاً مهماً في الدولة، وكان دائماً مكتمل المظهر أنيقاً، حتى في أيام العطل ونهايات الأسابيع. كل ما فيه، أو ما يقوم به، يوحي بطريقة ما أنه مسؤول عن النظام، وأنّ الناس مسؤولون أمامه عن النظام.

وكان له ذوق خاص بالسمك، يسأل عن اسمه ونوعه، وعن الطيِّب منه والأطيب مقليّاً أو مشوياً أو مطبوخاً. ويسأل عن طرائق صيده، بالشبكة أم بالصنارة، ونوع الطُعم الذي يُستعمل في صيد كل نوع. وكان عندما يختار، ينتقي الجيدَ والممتاز، كأنه سيد العارفين. وكان في كل مرة أنتهي فيها من تنظيف السمك وأوضّبه في الكيس، يبادر إلى دفع الثمن ويصرّ على إعطاء إكرامية التنظيف، ثم يعتذر بلطف ويسحب من الرزمة كيساً جديداً لم تلمسه يدي، ويفتحه لأضع فيه كيس السمك المنظّف، ثم يربّت كتفي أو ذراعي ويشكرني، وينطلق إلى سيارته.

أعرف أنه الأستاذ نور، وأنه من سكان بيروت. ثم صرتُ أعرف أنّه من أبناء الشمال. فلقد كنت أراه أيام الآحاد والأعياد آتياً من صوب بيروت ومعه عائلته: زوجته وولداه. يتوقف ويسأل إنْ كان عندي أكلةُ سمكٍ يحملها معه إلى الأهل. هو إذنْ من الشمال، لكنّ لهجته المتوازنة لم تساعدني على معرفة المنطقة التي ينتمي إليها. لم تكن توحي أنه من طرابلس مثلاً، أو من الكورة، أو من الزاوية. كان ينزل من السيارة وينزل معه ولداه: صبيٌّ وبنتٌ كثيرا الحركة، يطرحان الكثير من الأسئلة، يريدان أن يعرفا كلَّ شيء، وخصوصاً عن السمك. ما اسم هذا؟ وهذا؟ وهل يعضّ؟ ماذا يأكل؟ وهل يشرب من البحر؟ وكيف يبول؟ ومن أين يخرج؟ وكنتُ بالفعل أفكّر فيه في مثل هذه المناسبات كلما وُفِّقتُ إلى صيد النوع المفضّل لديه، وأتمنى بيني وبين نفسي أن يمرّ عليّ ويجد طلبه حاضراً. وكثيراً ما كان حضورُه يوافق ما أتمنى، فأراني أرحّب به رافعاً يدي بالتحية قائلاً: «أهلاً بالأستاذ.. اليوم عندي طلبك، تفضّل». وكان ينزل من السيارة وينزل معه ولداه الفضوليان. يصبّح بالخير ويقول: «يا سيد كريم ـ أو كرم ـ أنت إنسان خير، السمك مشرور على الطريق، وأنا أقول لنفسي لا بد أني واجد عندك مطلبي. نحن حظّنا معك جيد دائماً».

وذات يوم، وأذكر أنّه كان يوم أحد، ظهر فجأةً، وأوقف سيارته في ظل الجدار المقابل للدكّان، ونزل وحده منها بينما بقيتْ عائلتُه فيها ومعها رفيقُ طريق: شابٌّ في مقتبل العمر، أشقر. صبَّحَ بالخير، انتقيتُ له السمكَ وقعدتُ أنظّفه، بينما وقف في باب الدكان، وقد شكّلَ يدَه في خصره تحت زنّاره وراح يتأمل الدنيا. ذلك اليوم، مع أنه كان يوم أحد، لم أكن أتوقع مروره عليّ. وكان توجُّهه من الشمال إلى بيروت، بدل أن يكون من بيروت إلى أهله في الشمال. كنت أشعر، ولا أعرف لماذا، كأنّ كل شيء يبدو معكوساً، أو كأنّ أمراً مّا يحدث أو سيحدث. وكان في الدكان والدي والعم بولس يلعبان النرد ويتفاخران أو يتهاجيان. ثم جاء جوزيف طوبيا، وأوقف دراجته النارية، ودخل والعرق ينضح من جبينه وصدغيه. قال وهو يلهث:

ـ «الشباب» في شكّا يقيمون حاجزاً مسلّحاً، يوقفون السيارات والباصات ويُنزلون منها الناسَ، وخصوصاً الشبّان.

وتَخَبَّط قلبي في صدري. وقال العم بولس:

ـ أين هذا يا صبي؟

ـ في «شكّا»، قرب معمل الإترنيت. قطعوا الطريقَ بالسلاح، وراحوا يوقفون السيارات والناس.

واعترتني رجفةٌ. أحسستُ بالخوف يدبّ في صدري. قلت:

ـ آه... طيب. رُحْ، الله معك.

ـ ولكني أقول الصدق.

ـ ومتى كنتَ تعرف الصدق؟

قال العم بولس:

ـ يا جماعة، اللّه يعين هذا البلد على هؤلاء المجانين. سيخربون الدنيا، واللهِ. تعال يا جوزيف، قل لي: كيف عرفت؟ من أخبرك هذا؟

ـ رأيتهم بعيني. أنا آتٍ من هناك الآن، على الموتوسيكل. رأيتهم يُنزلون الناس من السيارات، يطّلعون على هوياتهم، ومن ثم يتركون البعضَ ويوقفون البعضَ الآخر ويحتجزون سياراتهم.

ـ يا عمي كُفّوا عن هذا الحديث. روحوا احكوا غير هنا.

(خفتُ أن يتطور الكلام فيحصل ما لا تُحمد عقباه امام الأستاذ نور، بل خفتُ عليه حقاً. ونظرتُ إليه، فرايته يتامل جوزيف بهدوء وتمعّن، ويستمع إلى ما يدور بيننا).

ـ ونحن يا ابني، ما دخلنا في ما يحصل في شكا؟

ـ الناس قائمة على بعضها، ونحن ما دخلنا؟!

ـ يا عمي حلوا عنّا، اللّه يرحم موتاكم. أرجوك يا عم بولس.. وأنت يا جوزيف.. يا عمي خذْ موتوسيكلك وافرقنا، الله يرضى عليك.

ـ وماذا تريدنا أن نعمل يا جوزيف؟

ـ أنتم لا دخل لكم في الموضوع. نحن الشباب نعرف كيف نتصرف.

ـ أنتم الشباب.. من؟

ـ نحن. أنا ومخايل وضاهر وفؤاد والياس و... كل الشباب.

ـ وماذا ستفعلون؟

ـ نقيم حاجزاً هنا في البلدة، نوقف الناس ونتصرف. ما الذي يمنعنا أن نقيم حاجزاً؟ ماذا ينقصنا؟

وصرختُ:

ـ انقبرْ من هنا، قلت لك. يا عميّ، بجاه المسيح والعذراء حلّ عنا.

ـ نحن لسنا أقلّ من أهل شكّا عنفواناً. نحن أبطال مثلهم، وأكثر. وكلنا عندنا السلاح.

ـ روحوا حطوا سلاحاتكم بِ بِ بِ... بالجورة واطمروها، فهمت؟ يُلعن أبوكم وأبو أهل شكا. أنا لا أريد مثل هذا الحديث في دكاني.

ـ وما دخلكَ أنت؟ نحن لا نطالب منك أن تشارك، والحاجز لن نقيمه على باب دكّانك. يجب أن يعرف العالم أنّ «أنفة» كغيرها من القرى اللبنانية عرين أبطال ومدرسة عنفوان.

ـ طظ! تذهب من هنا أو أشقّك بهذه السكين؟

ـ يا سيد كرم..

والتفتُّ إلى الأستاذ. كان هادئاً كما عوّدني أن أراه. كأنّ كل ما جرى أمامه لم يَعْنِهِ في شيء. وكان خوفي كله عليه وعلى عائلته. الشيطان هكذا يتصرف، يتدخّل فجأة فتضطرب الدنيا. والشباب هذه الأيام متهوّرون، مشحونون بالعنفوان.

ـ يا سيد كريم، أنت لست شاباً مثل جوزيف لتحسّ بما يحسّ وتعمل كما يعمل. قلْ لي يا أخ جوزف **(كان صوته هادئاً موزوناً، ومفعماً بالألفة والتفهم)** هل تريدون أنت ورفقاؤك أن تكونوا أبطالاً حقاً؟

ـ نعم. وماذا ينقصنا؟ السلاح؟ الشجاعة؟ هه ـ نحن نأكل النار أكلاً. وهذا أوان البطولات. نريد أن ندافع عن أرضنا وأهلنا ووطنا.

ـ هذا أوان البطولات حقاً. وأنتم، الشباب، المعنيون بهذا أولاً. الشباب هم أمل الوطن ودرعه الواقية.. والسلاح موجود، ولكنْ...

ـ ولكنْ ماذا؟ لعلك لا تريدنا أن نقيم حاجزاً في بلدتنا.

تتدخل في شؤوننا وأنت غريب عنا. مَنْ أنت؟

وصرخ العم بولس: جوزيف.

وصرختُ: يا ابن الكـ...

واندفعتُ صوبه والسكين في يدي.

ـ كرم.

وجمدتُ أمام صرخة الأستاذ. قالها لأول مرة دون أن يقول: «سيد». ثم عاد إلى هدوئه المدهش، وقال:

ـ يا سيد كريم، يا عم بولس، يا جماعة.. لماذا الصراخ والزعيق؟ الحديث بيني وبين الأخ جوزيف، دعونا نتحاور بهدوء. أنا معه في كل ما يقوله. اسمعْ يا جوزيف، أنا أتمنى لو تقيمون حاجزاً في بلدتكم، بل حاجزيْن.. وربما أكثر. وأن تمارسوا البطولة بحق. ولكنْ ما هي البطولة أولاً؟

ـ البطولة: العنفوان، القتال حتى النصر، أو الموت. والموت للأعداء.

ـ دعنا من العنفوان، على الأقل الآن. القتال حتى النصر أو الموت دفاعاً عن الوطن، هذا صحيح لأنه حق. الموت للأعداء، نعم الموت للأعداء. كلنا نريد ذلك. ولكنْ..

ـ ولكنْ، ولكنْ.. ولكنْ ماذا؟ نحن الشباب، ونحن المسؤولون عن حماية البلدة وعن كرامة أهلها. لقد تدرّبنا على القتال، واستعددنا لمثل هذا اليوم. ولقد طال الانتظار.

كنتُ لا أزال واقفاً في وضع قتاليٍّ، وكلي تصميمٌ على التدخل دفاعاً عن الأستاذ نُور إذا ما تعرض لمكروه. أحسستُ بكل صدق أنّي مسؤول عن سلامته أولاً، كأنّه أخي الكبير أو سيدي. وسمعتُه يقول بعد قليل من الصمت صَرَفَه في النظر ملياً إلى الشاب الأصهب الشعر:

ـ اسمعْ يا أخ جوزيف. أنا معك في كل ما تقول، وفي كل ما تحس. أوافقكَ على الكثير من كلامك: البطولة، حماية البلدة، الدفاع عن الأهل والوطن. أوافقك على كل هذا، وعلى أنّ المعنيين أولاً هم الشباب أمثالك. ولكنْ..

ـ عدنا إلى «ولكنْ».

ـ تعال نتحدثْ أولاً عن البطولة. ما هي البطولة؟ ما هو العمل البطوليّ المطلوب منا اليوم؟ إنه، يا عزيزي، العملُ الذي يعجز الغيرُ عن القيام به.

ـ وهل ترانا عاجزين عن إقامة حاجز في بلدتنا، مسقط رأسنا؟

ـ بالعكس تماماً. كل إنسان اليوم بإمكانه أن يقيم حاجزاً في بلدته. الشاب والعجوز، وربما الطفل ما دام يحمل السلاح في وجهِ مَنْ لا يحمل السلاح. ولأنّ السلاح موجود في كل مكان، فهذا يعني أنّ كل الشباب، في كل قرية أو بلدة، يستطيعون أن يقيموا الحواجز، ويستوقفوا الناس، ويخطفوا على الهوية من يشاءون. وإذا ما لزم كلُّ جماعةٍ قريتهم أو بلدتهم وأقاموا حواجزهم فيها، فسترى عندئذ أنّ الخاطفين هم المسلحون المدربون على القتال، المشحونون بالعنفوان. وسنرى أيضاً أنّ المخطوفين هم أولئك الأبرياء الذين لا يحملون السلاح

وهم الذين تركوا قراهم أو بلداتهم وراحوا يتجولون على الطرقات ويدخلون بلدتكم آمنين واثقين بأنّ ما يقوم به الشبابُ لا يعنيهم، لأنهم غير محازبين أو محاربين بل هم مواطنون شرفاء مثلك ومثلي. أين هي البطولة في خطف أمثال هؤلاء؟ البطولة اليوم ليست أن نقوم بالعمل الذي يستطيعه كلُّ إنسان، شاباً كان مثلك أو عجوزاً مثل العم بولس، معذرة يا عم بولس، أو طفلاً مثل ابني الصغير الموجود هناك في السيارة. صح؟

ـ صح، ولكنْ...

ـ آه، جاء دورك الآن لتقول «ولكن».

ـ ولكنْ ماذا تريد أن نعمل؟

ـ أقيموا الحواجز حيث يجب. ومارسوا عليها البطولة الحقيقية. البطولة اليوم هي القيام بما يعجز عنه الغير، قلنا. ويظهر أنّ ما يعجز الغيرُ عن القيام به هو المحبة. **(وثبّت عينيْه في عينيْ جوزيف وهزّ رأسه على مهل من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق).** ما قولك يا أخ جوزيف؟ ألستَ معي في ما أقول؟ ألا ترى أنّ المحبة اليوم عمل جبّار يَنْدر أن نجد مَنْ يستطيعه؟ وأنّ المحب اليوم هو البطل الحقيقي؟ هل تستطيع أن تكون هذا البطل؟

ـ هل تستطيع أنت؟

ـ أنا؟ أنا والحمد لله لا أستطيع إلا أن أحبّ جميعَ الناس. أنا لا أكره أحداً، لا أستطيع. وأتمنى أن تكون أنت كذلك. هل تستطيع؟ لا تجب عن سؤالي ما لم تتأكد من حقيقة مشاعرك. فكّرْ قبل كل شيء في نتيجة عمل الذين يَخْطفون أو يَقْتلون على الهويّة، ماذا يمكن أنْ تكون؟ وإلى أين يمكن أن توصلنا؟ وفكّرْ أيضاً في نتائج أعمال المحبّين ماذا يمكن أن تكون، وماذا يمكن أن تحقق على الصعيد الوطني، وإلى أين ستصل بنا وبالوطن؟

ـ تعني.. أنه لا داعي لاقامة حاجز في الـ...

ـ بل لا بد من إقامة حاجز. بل حواجز. نقف عليها، بسلاح أو بدون سلاح، نستوقف الناس، نحييهم، ومن دون أن ننظر في هوياتهم نسألهم عن وجهتهم، ثم نطلب منهم أن يعودوا من حيث أتوا إنْ كانوا سيمرون على حاجز لمسلحين، وندلهم على الطريق الآمن، أو نبقيهم عندنا، نستضيفهم، معزّزين مكرّمين إذا ما سُدّتْ طرقُ الأمان في وجوههم.

وسكت الأستاذ نور. وظل يحوم بعينيه على وجه جوزيف. وسكتنا جميعاً. خَيَّمَ علينا هدوءٌ مفعمٌ بالسكينة والصفاء. واحمرّ وجهُ جوزيف ولمعتْ حبيباتُ العرق على جبينه، ثم ما لبث أن أحنى رأسه وأرخى كتفيه.

ـ يا أخ جوزيف، ارفعْ رأسك. يجب أن تكون فخوراً بنفسك وبعملك. يا الله، أين صرنا يا سيد كريم؟

ـ كرم يا أستاذ، كرم. لحظة. **(غسلتُ السمكات، ووضعتها في الكيس)** تفضّلْ.

وسحب بأنامله كيساً جديداً حاول جوزيف أن يسبقه إليه.

ـ خلِّها علينا، هذه المرة، الله يخليك.

ـ الله يخليكم جميعاً، شكراً.

ونَقَدَني الثمن، وإكراميةَ التنظيف، وربّت على كتفي، وتوجّه إلى سيارته وقد أحاط بذراعه جوزيف الذي رافقه إليها. انحنيا على عائلته، تبادلوا كلاماً، ثم انتصب الأستاذ وتوجه بجبينه نحو شكا، ثم أدار وجهه صوب طرابلس، وهدأ. ناديتُه من مكاني:

ـ الله معك يا أستاذ. توكّلْ على الله وتيسّرْ. الذي يحمل سلاحك يمشي على وجه الماء. قلْ يا الله. بحماية العذراء.

تبسّم لي، وأرْجَع رأسه يميناً وشمالاً. تبادل كلاماً مع جوزيف، ثم لوّح لي بيده مودِّعاً واستقلّ سيارته وانطلق، بينما أسرع جوزيف إلى دراجته وانطلق عليها وراءه ثم ما لبث أن تجاوزه ليسير أمامه.

بعد حوالي ساعة عاد جوزيف ليعلن بفرح أنه أوقفه عند مطحنة البرغل وسبقه إلى شكّا ليستكشف له الطريق. قال إنّه رافقه حتى «نفق سلعاتا» حيث ودّعه وعاد.

كان ذلك يوم الأحد في ٧ أيلول ١٩٧٥، يوم مجزرة داريّا المشؤوم، حين اختطف مسلّحون بعضَ الأبرياء على مجاز بلدة شكّا وذهبوا بهم شرقاً باتجاه منطقة داريّا. ومنذ ذلك اليوم لم أر الأستاذ نور، ولم أعرف عنه أو عن عائلته شيئاً. ترى ماذا جرى لهم؟ سؤال حائر وتخمينات كلها سوداء تقبض القلب: هل ما زالوا على هذه الأرض المنكودة؟ هل هاجروا؟ هل تهجّروا؟ هل مات أحدٌ منهم؟ لو كنتُ أعرف من أيّ بلدةٍ هو لقصدتُها أسألُ عنه وعن عائلته لعلّ قلبي يطمئن. آآآه.. سنون سوداء وأيام قحباء مرّتْ علينا. وانشغل كلُّ إنسان بمصائبه. نحن هنا تقاذفتنا الحربُ من جحيم إلى جحيم: اجتاحتنا أولاً قواتُ اليسار، من الشمال إلى الجنوب حتى بلدة «حامات»، فقَتَلَتْ ودمّرَتْ وأحرقتْ ونهبت.. ثم اجتاحتنا ميليشياتُ اليمين من الجنوب إلى الشمال وقتلتْ وأحرقتْ ونهبتْ هي الأخرى.. قُتِل أبي حرقاً وهو موثوق على حديد سريره، وقُتلتْ أمي طعناً بالسنك، وفقد العم بولس يسراه التي كان يلوِّح بها كلما حكى، وأنا.. فقدتُ عيني اليسرى وكفِّي اليسرى. كثيرون ماتوا، شبان وكهول ونساء وصبايا وأطفال. آآآه...

تذكّرتُ كلَّ هذا، اليوم، عندما مر عليَّ هذا الصباح جوزيف طوبيا بوجهه الأحمر وشعره المكزبر. قال كلاماً لم أتنبه له، وبدون تفكير قلت له: «كذاب»، فقال:

ـ لا والله.. وحياة الأستاذ نور.

وانتفض قلبي.. «الأستاذ نور؟ ما الذي ذكّرك بالأستاذ نور الآن؟»

ـ الأستاذ نور في قلبي دائماً.

وأغمض عينيه، ورفع وجهه كمن يتنسّم هواء عليلاً، ثم دار وابتعد. لم يكن على الموتوسيكل، كان على كرسيّه النقّال، فلقد مرتْ عليه الحربُ هو الآخر، وغرزتْ أنيابها المعدنيةَ في سلسلة ظهره.. وهو رغم ذلك لا يزال يتصرف كبطل. كان جوزيف طوبيا بطلاً بحق، قبل المأساة التي نزلتْ به وبعدَها.. تماماً كما أراد له الأستاذ نور أن يكون.

آآآه، يا أستاذ نور، أين أنت؟

بيروت